

الجزء السادس والعشرون

سورة الأحقاف

هي مكية إلا ثلاث آيات : ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ فمدنية .

وعدة آياتها خمس وثلاثون ، نزلت بعد الجاثية .

ووجه اتصالها بما قبلها — أنه تعالى ختم السورة السالفة بالتوحيد وذم أهل

الشرك وتوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا

عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي

مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، انْتُونِي بِكِتَابِ

مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَةٍ مِنْ عَلِيمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ
يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ
غَافِلُونَ؟ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
كَافِرِينَ (٦) .

شرح المفردات

أجل مسمى : هو يوم القيامة ، أنذروا : أى خوفوا ، معرضون : أى مولون
لاهون ، تدعون : أى تعبدون ، شرك : أى نصيب ، أنارة : أى بقية ، ومثلها الأثرة
(بالتحريك) يقال (سمنت الإبل على أنارة) أى بقية شحم كان قبل ذلك ، حشر:
أى جمع ، كافرين : أى مكذبين .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه السورة بإثبات أن هذا القرآن من عند الله، لامن عند محمد كما تدعون
ثم ذكر أن خلق السموات والأرض مصحوب بالحق قائم بالعدل والنظام ، ومن
النظام أن تكون الأجال مقدره معلومه لكل شيء ، إذ لا شيء فى الدنيا بدائم ،
ولا بد من يوم يجتمع الناس فيه للحساب ، حتى لا يستوى المحسن والمسيء ، ولكن
الذين كفروا أعرضوا عن إنذار الكتاب ولم يفكروا فيما شاهدوا فى العالم من النظام
والحكمة ، فلا هم بسماع الوحي متعظون ، ولا هم بالنظر فى العالم المشاهد يعتبرون ؛
ثم نعى على المشركين حال آلهتهم وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم :
أخبروني ماذا خلق آلهتكم من الأرض ، أم لهم شركة فى خلق السموات حتى
يستحقون العبادة ؟ فإن كان لهم ماتدعون فهاتوا دليلا على هذا الشرك المدعى بكتاب
وحى به من قبل القرآن أو ببقية من علوم الأولين ، وكيف خطر على بالسك أن

تعبدها وهي لاستجيب لكم دعاء إلى يوم القيامة وهي غافلة عنكم، وفي الدار الآخرة تكون لكم أعداء وتجدد عبادتكم لها .

الإيضاح

(حَمَّ) الكلام في مثلها قد تقدم من قبل .

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية وقد تقدم إيضاحه وتفسيره .

(ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) أى ما خلقناها إلا خلقا ملتبسا بالعدل ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه في هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ، لثلاث يتساوى من أحسن في الدار الأولى ومن أساء فيها ، ومن أطاع ربه واتبع أوامره ونواهيه ، ومن دسنى نفسه ، وركب رأسه ، واتبع شيطانه وهواه ، وسلك سبل الغواية فلم يترك منها طريقا إلا سلكه ، ولا بابا إلا ولجّه .

ثم بين غفلة المشركين وإعراضهم عما أنذروا به فقال :

(والذين كفروا عما أنذروا معرضون) أى مع مانصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقی هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلام بما أنزلنا من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا ، وأتى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لا يعقلون .

وبعد أن أثبت لنفسه الألوهية ، وأنه رحيم عادل ، وأثبت البعث والجزاء يوم القيامة ، ردّ على عبدة الأصنام فقال :

(قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات) أى قل لهم أيها الرسول : أخبروني عن حال آلهتكم بعد التأمل

في خلق السموات والأرض وما بينهما والنظام القائم فيها المبني على الحكمة ودقة الصنع والإبداع في التكوين : هل تعقلون لهم مدخلا في خلق جزء من هذا العالم السفلي ، فيستحقوا لأجله العبادة ؟ ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت في هذا النظام ، والمشاهد أنه على حال واحدة يستمد أدناه من أعلاه ، ويرتبط بعضه ببعض ، وكل فرد في الأرض مخدوم بجميع الأفراد فيها ، أم هل تظنون أن لهم شركة في خالق العالم العلوي شمس وأقماره ، كواكبه ونجومه ، سياراتها وثوابتها .

وقصارى ذلك — نفي استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتم وجه ، فقد نفي أن لها دخلا في خلق شيء من أجزاء العالم السفلي استقلالا ، ونفي ثانيا أن لها دخلا على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلوي ، ونفي ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية أيضا .

وتخصيص الشركة في النظم الجليل بقوله سبحانه « فِي السَّمَوَاتِ » مع أنه لا شركة فيها ولا في الأرض أيضا — لأن الغرض إزمامهم بما هو مسلم لهم ، ظاهر لكل أحد ، والشركة في الحوادث السفلية ليست كذلك ، نتملكهم وإيجادهم بعضها على حسب الصورة الظاهرة .

وبعد أن بكتهم وعجزهم عن الإتيان بسند عقلي ، عجزهم وبكتهم عن الإتيان بسند نقلي فقال :

(ائتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين) أى إن كان ما تقولونه حقا فائتوني أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب كالتوراة والإنجيل يشهد بصحة ما تدعون لآلهتكم ، أو ببقية بقيت عندهم من علم الأولين المفكرين في خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأصنام والأوثان للعبادة . وتدل على صحة المسلك الذي سلكتموه .

والخلاصة — إن الدليل : إما وحى من الله ، أو بقية من كلام الأوائل ، وإما

إرشاد من العقل ، فإن كان الأول فأين الكتاب الذى يدل على أنهم شركاء ؟
وإن كان الثانى فأين هو ؟

وبعد أن أبطل شركة الأصنام فى الخلق بعدم قدرتها على ذلك — أتبعه إبطاله
بعدم علمها بالعبادة فقال :

(ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن
دعائهم غافلون) أى لا أضل ممن يعبد من دون الله أصناما ويتخذهم آلهة ، وهم إذا
دعوا لا يسمعون ولا يجيبون إلى يوم القيامة ؛ أى لا يجيبون أبدا ماداموا فى الدنيا ،
إذ هم فى غفلة عن دعائهم ، لأنهم أحجار ، فهم صم بكم لا يسمعون ولا يتكلمون .
وما أنكى هذا التوبيخ وما أمضأ أله هؤلاء المشركين على سوء رأيهم وقبح
اختيارهم فى عبادتهم ما لا يعقل شيئا ولا يفهم ، وتركهم عبادة من بيده جميع نعمهم ،
ومن به إغاثتهم حين تنزل بهم الجوائح والمصائب .
وبعد أن أبان أنهم لا ينفعونهم فى الدنيا ولا يستجيبون لهم دعاء — أبان حالهم
فى الآخرة فقال :

(وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) أى وإذا جمع
الناس لموقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يعبدونها فى الدنيا أعداء لهم ، إذ يتبرءون
منهم ، وكانوا بعبادتهم كافرين ، فهم يقولون : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بهم ،
تبرأنا إليك ربنا منها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا .
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » وقوله حكاية عن إبراهيم
عليه السلام : « قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ
النَّارُ وَمَأْوَاكُمُ مِنَ النَّاصِرِينَ » .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
 هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي
 مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي
 مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
 مُّبِينٌ (٩) .

شرح المفردات

المراد بالحق آيات القرآن ، افتراه : كذب عليه عمدا ، فلا تملكون لى من الله
 شيئا : أى لاتتمنون عنى من الله شيئا إن أراد عقابى ، تفيضون فيه : أى تخوضون
 فيه من تكذيب القرءان ، يقال أفاض القوم فى الحديث : أى اندفعوا فيه ، والبدع
 والبديع من كل شىء : المبتدع المحدث دون سابقه له .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الأضداد والأنداد — أعقب هذا بالكلام
 فى النبوة وبين أنه كلما تلا عليهم الرسول شيئا من القرآن قالوا إنه سحر ، بل زادوا
 فى الشناعة وقالوا : إنه مفترى ، فرد عليهم بأنه لو افتراه على الله فمن يمنعه من عقابه
 لو عاجله به ؟ وهو العليم بما تندفعون فيه من الطعن فى نبوتى ، ويشهد لى بالصدق
 والبلاغ ، وعليكم بالكذب والجحود .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إني لست بأول الرسل حتى تنكروا دعائى لكم
 إلى التوحيد ، ونهى لكم عن عبادة الأصنام ، وما أدرى مايفعل بى فى الدنيا ؟

أموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبلى ، ولا ما يفعل بكم ، أترمّون بالحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض ، أم يفعل بكم غير ذلك مما عمل مع سائر المكذبين للرسل ؟ وإني لا أعمل عملا ولا أقول قولاً إلا بوحي من ربى ، وما أنا إلا نذير ، لا أستطيع أن آتى بالمعجزات والأخبار الغيبية ، فالقادر على ذلك هو الله تعالى .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كذبوا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه . ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها فقال : (أم يقولون افتراه) أى دع هذا واسمع القول المنكر العجيب : إنهم يقولون إن محمداً افتراه على الله عمداً واختلقه عليه اختلاقاً . وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله :

(قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً) أى قل لهم : لو كذبت على الله وزعمت أنه أرسلنى إليكم ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ولم يقدر أحد من أهل الأرض لائتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسى لعقابه ، فالملوك لا يتركون من كذب عليهم دون أن ينتقموا منه ، فما بالكم بمن يتعمد الكذب على الله فى الرسالة ، وهى الجامعة لأمر عظيمة ، ففيها الإخبار عن تكليف الناس بما يصلح شأنهم فى دينهم ودنياهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَسَدِّدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ » وقوله : « وَتَوَقَّوْا عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْتَوَيْنِ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله :

(هو أعلم بما تفيضون فيه) أى هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والظعن في آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى .

ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله فقال :

(كفى به شهيدا بيني وبينكم) فهو يشهد لى بالصدق فى البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد الشديد على إفاضتهم فى الآيات .

ثم فتح لهم باب الرحمة بعد الإنذار السابق لعالمهم يتوبون ويشوبون إلى الحق فقال :

(وهو الغفور الرحيم) أى ومع كل ما صدر منكم من تلك المطاعن الشنعاء إن أنتم تبتتم وأنتم إلى ربكم وضح عزمكم على الرجوع عما أنتم فيه ، تاب عليكم وعفا عنكم وغفر لكم ورحمكم .

وبعد أن حكى عنهم ظعنهم فى القرآن — أمر رسوله أن يرد عليهم مقترحاتهم العجيبة ، وهى طلبهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات على حسب ما يريدون ويشتهون ، وكلها تدور حول الإخبار بشئون الغيب فقال :

(قل ما كنت بدعاً من الرسل) أى قل لهم : لست بأول رسول بلغ عن ربه ، بل قد جاءت رسل من قبلى ، فما أنا بالفذ الذى لم يمهده نظير حتى تستنكرونى وتستبعدون رسالتى إليكم ، وما أنا بالذى يستطيع أن يأتى بالمعجزات متى شاء ، بل ذلك بإذنه تعالى وتحت قبضته وسلطانه ، وليس لى من الأمر شئ ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) أى ولا أعلم ما يفعل بى فى الدنيا ، أأخرج من بلدى كما أخرجت أنبياء من قبلى ، أم أقتل كما قتل منهم من قتل ؟ ولا ما يفعل

بكم أيها المكذبون ، أترمّون بججارة من السماء أم تحسّف بكم الأرض ؟ كل هذا علمه عند ربي .

وفي صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء أنها قالت : « لما مات عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، قلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، لقد أكرمك الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجوه للخير ، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ولا بكم ، قالت أمّ العلاء فوالله ما أزكنى بعده أبداً » .

وفي رواية الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس «أنه لما ماتت امرأته أو امرأة: هنيئاً لك ابن مظعون الجنة ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضب وقال : وما يدريك ؟ والله إني لرسول الله ، وما أدري ما يفعل الله بي ، فقالت : يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم ، فقال : أرجوه رحمة ربه تعالى وأخاف عليه ذنبه » .

ومن هذا يعلم أن ما ينسب إلى بعض الأولياء من العلم بشئون الغيب ، فهو فريفة على الله ورسوله ، وكفى بما سلف ردّا عليهم .

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله :

(إن أتبع إلا ما يوحى إلى) أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع شيئاً من عندى .

ثم زاد الأمر توكيداً فقال :

(وما أنا إلا نذير مبين) أى وما أنا إلا نذير أنذركم عقاب الله ، وأخوفكم

عذابه ، وآتيكم بالشواهد الواضحة على صدق رسائى ، ولست أقدر على شيء من الأعمال الخارجة عن قدرة البشر .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدًا مِنْ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَإِيْهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا
 إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكُافٍ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ
 مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَارِيْنَا لِيُنذِرَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا وَبُشْرَى الْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَنْصَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ
 فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

المعنى الجملى

لا يزال الكلام موصولاً بسابقه ، فبعد أن نهي عليهم استهزاءهم بكتابه وقولهم
 فيه : إنه سحر مفترى ، ورد الرسول عليهم بأنه ليس بأول رسول حتى يستنكرون
 نبوته ويطلبون منه مالا قبل له به من المعجزات التي أمرها بيد الله لا بيده — أردف
 هذا بأمر رسوله أن يقول لهم : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب
 الذي جئتكم به قد أنزله الله على لأبلغكموه فكفرتكم به وكذبتموه ؟ وقد شهد شاهد
 من بنى إسرائيل الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة على مثل ما قلت ،
 فأمن واستكبرتم ؟ ثم حكى عنهم شبهة أخرى بشأن إيمان من آمن منهم من الفقراء
 كعمار وصهيب وابن مسعود فقالوا : لو كان هذا الدين خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء ،
 ثم ذكر أنهم حين لم يهتدوا به قالوا : إنه من أساطير الأولين ، ثم ذكر أن مما يدل
 على صدق القرآن أن التوراة وهي الإمام المقتدى به ، بشرت بمقدم محمد صلى الله

عليه وسلم فاقبلوا حكمها في أنه رسول حقا من عند الله ، ثم أعقب هذا ببيان أن من آمنوا بالله وعموا صالحا لا يخافون مكرها ولا يحزنون لقوات محبوب ، وأولئك هم أهل الجنة جزاء ما عملوا من عمل صالح وما أجبوا إلى ربهم وانقادوا لأمره ونهيه.

الإيضاح

(قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) أى قل لهم : أخبروني إن ثبت أن القرآن من عند الله لعجز الخلق عن معارضته ، لأنه سحر ولا مفترى كما تزعمون ، ثم كذبتم به وشهد أعلم بني إسرائيل بكونه من عند الله فآمن واستكبرتم — أفلمستم تكونون أضل الناس وأظلمهم؟

والخلاصة — أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، وشهادة منصف من بني إسرائيل عارف بالتوراة على مثل ما قلت فآمن به مع استكباركم — أفلا تكونون ظالمين لأنفسكم؟

وهذا الشاهد هو عبد الله بن سلام — فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) » .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل في آيات من كتاب الله ، نزلت في « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ » . ونزل في : « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

ثم ذكر أن في استكبارهم عن الإيمان هو ظلمهم لأنفسهم وكفرهم بآيات ربهم فقال :

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أى إن الله لا يوفق لإصابة الحق وهدى

الصراط المستقيم من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجّة الظاهرة عليهم .

عن عوف بن مالك الأشجعي قال : « انطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه ، فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً ، فقال : أبيت ، فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفي ، آمنتم أو كذبت ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أي رجل تاملوني فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفضه منك ولا من أبيك ولا من جدك ، فقال فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا شراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبت من يقبل منكم قولكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله وأنا وعبد الله بن سلام فأنزل الله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ — إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

أخرجه أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه السيوطي .

ثم حكى نوعاً آخر من أقوالهم الباطلة في القرآن العظيم والمؤمنين به فقال : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه) أي وقال كفار مكة لأجل إيمان من آمن من فقراء المؤمنين كهمار وصُهيب وابن مسعود ومن لفّ ففهم : لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ، فإن معالي الأمور لاتناها أيدي الأراذل ، وهؤلاء سقّاط الناس ورعاة الإبل والشاة ، وقد قالوا ذلك زعماً منهم أنهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، وأن الرياسة الدينية ممانتال بأسباب دنيوية ،

وقد غاب عنهم أنها منوطة بكالات نفسية وملكات روحية مبناهما الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة ، وأن من فاز بها فقد حازها بجذافيرها ، ومن حُرِمها فماله فيها من خلاق ، ولم يعلموا أن الله يختص برحمته من يشاء . ويصطفى لدينه من يشاء .

وعن قتادة : قال ناس من المشركين نحن أعز ونحن ونحن فلو كان خيرا ماسبقنا إليه فلان وفلان فنزلت هذه الآية .

وروى أنه لما أسلمت جُهينة ومزينة وأسلم وغفار قالت بنو عامر وغطفان وأشجع وأسد : لو كان هذا خيرا ماسبقنا إليه رغاء البهائم والشاء .

فأجابهم الله عن هذا بقولهم :

(وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفاك قديم) أى وقد ظهر عنادهم واستكبارهم إذ لم يهتدوا به ، وسيقولون القينة بعد القينة والحين بعد الحين : هذا كذب مأتور عن الأقدمين ، انتقاصه ولأهله ، واستكبارا عن اتباع الحق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكبر بظن الحق وغبط الناس » .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً أُصِيلًا » .

ثم رد عليهم طعنهم في القرآن وأثبت صحته فقال :

(ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) أى ومما يدل على صحة القرآن أنكم لاتنازعون في أن الله أنزل التوراة على موسى وجعلها إماما لبني إسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يكون محمد صادقا في رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله ، وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة وهو بشرى لمن أحسن عملا .

والخلاصة — كيف يكون إفاكا قديما وهو بصدق لكتاب موسى الذي تعرفون بصدقه ، وهو بلسان عربى والتوراة بلسان عبرى ، فتصديق الأول للثانى دليل على اتحادها صدقا — فبطل كونه إفاكا قديما وثبت الصدق القديم .

وبعد أن ذكر طريق المبطلين أرشد إلى طريق الحقين وذكر جزاءهم فقال :
(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين قالوا ربنا الله لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ولم يخلطوه بشرك ، ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم .

(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) أى هؤلاء الذين قالوا هذا القول واستقاموا — هم أهل الجنة ما كثين فيها أبدا ثوابا منا لهم كفاء ما قدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ
سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ
المُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ
سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

شرح المفردات

الإيضاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلسكه ، والإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن : خلاف القبح ، والمراد أنه يفعل معهما فعلا ذا حسن ،

والكراه (بالضم والفتح) كالضعف والضعف : المشقة ، وحمله : أى مدة حمله ، وفصاله : قطامه ؛ والمراد به الرضاع التام المنتهى بالنظام ، والأشد : استحكام القوة والعقل ، وأوزعنى : أى رغبتى ووقفنى ، من أوزعته بكذا : أى جعلته مواماً به راغباً فى تحصيله ، والقبول : هو الرضا بالعمل والإجابة عليه ، فى أصحاب الجنة : أى منتظمين فى سلوكهم كما تقول أكرمى الأمير فى أصحابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيد سبجانه وإخلاص العبادة له والاستقامة فى العمل — أردف هذا بالوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم كقوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » وقوله : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » .

روى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر إذ أسلم والداه ولم يتفق ذلك لأحد من الصحابة ، فأبوه أبو خنافة عثمان بن عمرو ، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو .

الإيضاح

(ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً) أى أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما ، والبر بهما فى حياتهما وبعد مماتهما ، وجعلنا البر بهما من أفضل الأعمال ، وعقوقهما من الكبائر ، والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ثم ذكر سبب التوصية وخص الكلام بالألم لأنها أضعف وأولى بالرعاية ، وفضلها أعظم كما ورد فى صحيح الأحاديث ومن ثم كان لها ثلثا البر؛ فقال :

(حملته أمه كرها ووضعته كرها) أى إنها قاست فى حمله مشقة وتعباً من لحم وغشيان وثقل إلى نحو أولئك مما ينال الحوامل ، وقاست فى وضعه مشقة من تعب الطلق وألم الوضع، فكل هذا يستدعى البر بها واستحقاقها للكرامة وجميل الصحبة .

ثم بين سبحانه مدة حمله وفضاله فقال :

(وحمله وفضاله ثلاثون شهرا) أى ومدة حمله وفضاله ثلاثون شهرا تكايد الأم فيها الآلام الجسمية والنفسية ، فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض وتقوم بغذائه وتنظيفه وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر فى نموه وحسن صحته .

وفى الآية إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن أكثر مدة الإرضاع حولان كاملان لقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِيَأْتِيَ الرَّضَاعَةَ » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الإرضاع .

وأول من استنبط هذا الحكم منها على كرم الله وجهه وواقفه عليه عثمان وجمع من الصحابة رضى الله عنهم . روى محمد بن إسحاق صاحب السيرة عن معمر بن عبد الله الجهني قال : تزوج منار رجل من امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان رضى الله عنه فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما قامت لتلبس ثيابها بكى أختها ، فقالت لها : وما يبكيك ؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله فى ما شاء ، فلما أتى بها عثمان أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا فأناه فقال مات صنع ؟ قال ولدت لتمام ستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له على : أما تقرأ القرآن ؟ قال بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجل يقول (وحمله وفضاله ثلاثون شهرا) وقال : « حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فلم تجده أبقي إلا ستة أشهر ، فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، على بالمرأة ، فوجدها قد فرغ منها ، قال معمر فوالله ما التراب بالفراب ولا البيضة بالبيضة بأشبهه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : ابني والله لا أشك فيه .

وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع

أحد وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لستة أشهر فحولان كاملان لأن الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) .

(حتى إذا بلغ أشده) أى حتى إذا اكتهل واستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله وهى فيما بين الثلاثين والأربعين .

(وبلغ أربعين سنة) وهذا نهاية استحصاد العقل واستكمالها ، ومن ثم روى عن ابن عباس : من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار ولهذا قيل :

إذا البرء وافى الأربعين ولم يكن له دون مايهوى حياء ولا سِتر
فدعه فلا تنفس عليه الذى مضى وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

قال المفسرون: لم يبعث الله نبيا قط قبل الأربعين إلا ابني الخالة «عيسى ويحيى» .

(قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والديّ) أى رب وفقنى لشكر نعمك التى غمرتني بها فى ديني ودنياي ، بما أمتع به من سعة فى العيش وصحة فى الجسم وأمن ودعة للإخلاص لك واتباع أوامرك وترك نواهيك ، وأنعمت بها على والديّ من تحننهما علىّ حين ربياني صغيرا .

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أى واجعل عملى وفق رضاك لأنال مشو بترك .

(وأصلح لى فى ذريتي) أى واجعل الصلاح ساريا فى ذريتي متمكنا من نفوسهم راسخا فى قلوبهم .

قال ابن عباس : أجاب الله دعاء أبى بكر فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فهيرة ، ولم يرد شيئا من الخير إلا أعانه عليه ، ودعا فقال : أصلح لى فى ذريتي ، فأجابه الله تعالى ، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا ، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا ، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبىّ

صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

(إني تبت إليك وإني من المسلمين) أى إني تبت إليك من ذنوبي التي فرطت مني في أيامي الخوالي ، وإني من الخاضعين لك بالطاعة المستسلمين لأمرك ونهيك ، المتقادين لحكمك .

روى أبو داود في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُهمهم أن يقولوا في التشهد : اللهم ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبيل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وذررياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجملنا شاكرين لنعمتك ، مُثنِّين بها عليك ، وأتمها علينا .

ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال :

(أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالح الأعمال ، فيجازيهم به ويثيبهم عليه ، ويصفح عن سيئات أعمالهم التي فرطت منهم في الدنيا لما لم تكن عادة لهم ، بل جاءت بحافز من القوة الشهوانية أو القوة الغضبية فلا يعاقبهم عليها ، وهم منتظمون في سلك أصحاب الجنة ، داخلون في عدادهم .

ثم أكد الوعد السابق بقوله :

(وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) أى وعدهم الله الوعد الحق الذي لا شك فيه وأنه موفّ به .

وهذه الآية كما تنطبق على سعد بن أبي وقاص وعلى أبي بكر الصديق اللذين قيل في كل منهما إن الآية نزلت فيه تنطبق على كل مؤمن ، فهو موسى بوالديه ،

مأمور أن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى في إصلاح ذريته ، ويدعو الله أن يوفقه لعمل أهل الجنة .

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَمِدَا نِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ؟ وَهُمَا يَسْتَفْخِمَانِ اللَّهَ وَيَلُكَّ آمِنَ ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ
فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨)
وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ
يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا
وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

أَفٍّ : صوت يصدر من الإنسان حين تضجره ، أخرج : أى أبعث من القبر
للحساب ، خلت القرون من قبلى : أى مضت ولم يخرج منها أحد ، يستفخمان الله :
أى يقولان الفياث بالله منك ، يقال استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد أنهما يستغثان
بالله من كفره إنكارا له واستعظاما له حتى لجأ إلى الله فى دفعه كما يقال العياذ بالله
من كذا ، ويلك : دعاء عليه بالثبور والهلاك ، ويراد به الحث على الفعل أو تركه
إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيئه وترك ما هو
فيه وأخذ بما ينجيهِ ، أساطير الأولين : أى أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من

غير أن يكون لها حقيقة ، حق عليهم القول : أى وجب عليهم قوله لإبليس «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» من الخاسرين : أى الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برءوس الأموال باتباعهم هزات الشياطين ، والدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة ، ويقال لها منزلة إذا اعتبرت صعودا ، ودرجة إذا اعتبرت حدورا ، ومن ثم يقال درجات الجنة ، ودرجات النار ، فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب ، طيباتكم : أى شبابكم وقوتكم يقولون ذهب أطيباه أى شبابه وقوته ، الهون : أى الهوان والذل ، تفسقون : أى تخرجون من طاعة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حال الداعين للوالدين ، البررة بهما ، ثم ذكر ما أعد لها من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الأشقياء العاقين للوالدين المنكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لاشك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين وخرافاتهم ، ثم ذكر أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار .

ثم أردف هذا بأن لكل من البررة والكفرة منازل عند ربهم كفاء ما قدموا من عمل وسيجزون عليها الجزاء الأوفى ، ثم أخبر بأنه يقال للكفار حين عرضهم على النار : أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والخزى والآلام اللوجبة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

الإيضاح

(والذى قال لوالديه أف لكما ، أتمداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟) أى والذى قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقه من

قبورهم ومجازاته إياهم بأعمالهم : أف لكما : إني لضجر منكما ، أتقولان إني أبعث من قبري حيا بعد موتي وفنائى وما لحقنى من بلى وتفتت عظام ؟ إن هذا لعجب عجب فهامى ذى قرون مضت ، وأم قد خلت من قبلى كماد وثمود ولم يبعث منهم أحد ، ولو كنت مبعوثا بعد وفاتى كما تقولان لبعث من قبلى من القرون الغابرة ؛ ألا ترى إلى قول من قال :

ما جاءنا أحد يخبّر أنه في جنة لما مضى أو نار

وزعم مروان بن الحكم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد ردت عليه عائشة رضى الله عنها . أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد رأى لأمير المؤمنين (يعنى معاوية) في يزيد رأياً حسناً أن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : سنة هرقل وقيصر^(١) إن أبا بكر رضى الله عنه ماجلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : ألسنت «الذى قال لوالديد أف لكما» فقال عبد الرحمن : ألسنت ابن الاعين الذى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أباك ، فسمعت عائشة فقالت لمروان : أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبت والله ما فيه نزلت ، نزلت في فلان بن فلان .

والحق أن الآية لم ترد في شخص معين ، بل المراد كل شخص يقول أمثال هذه المقالة فيدعوه أبواه إلى الإيمان بالبعث وإلى الدين الصحيح فأبى وينكر .
(وهما يستغيثان الله ويملك آمن إن وعد الله حق) أى ووالداه يستصرخان الله عليه ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث ويقولان له حثا وتحريضا : هلا كالك صدق بوعد الله وأنتك مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله الذى وعده خلقه أنه باعثهم من قبورهم ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم حق لاشك فيه .

(١) يريد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم ؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

والخلاصة -- إنهما يستعظمان قوله ويلجأان إلى الله في دفعه ويدعوان عليه بالويل والثبور ليستحياه على ترك ما هو فيه ويشعراه بأن ما ارتكبه جدير بأن يهلك فاعله .

ثم ذكر رده عليهما مع الاستهزاء بهما والتعجيب من حالهما .
(فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين) أى فيقول مجيبا والديه رادا عليهما نصحهما مكذبا بوعد الله : ما هذا الذى تقولان لى وتدعوانى إليه ، إلا ماسطره الأولون من الأباطيل ، فأصبتاه أنما وصدقتما به ، ولا ظلَّ له من الحقيقة .

ثم ذكر سبحانه جزاء هؤلاء على ما قالوا واعتقدوا فقال :
(أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس)
أى هؤلاء الذين هذه فهم أوصامم الذين وجب عليهم عذاب الله وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعتوا عن أمر ربهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالإنس ، قال أبو حيان فى البحر : قال الحسن البصرى فى بعض مجالسه : الجن لا يموتون ، فاعترضه قتادة بالآية فسكت .

وفى رده أيضا على من قال : إنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، لأنه رضى الله عنه أسلم وجبَّ عنه ما قبل وكان من أفاضل الصحابة ، أما من حق عليه القول فهو من علم الله تعالى أنه لا يُسَلِّم أبدا .

ثم ذكر العلة فى هذا العذاب المهين فقال :

(إنهم كانوا خامسين) لأنهم ضيعوا فطرهم التى فطرهم الله عليها واتبعوا الشيطان ، فغبنوا ببيعهم الهدى بالضلال ، والنعم بالعذاب .

ثم ذكر أن لكل من الفريقين الذين قالوا ربنا الله ، والذى قال لوالديه مراتب متفاوتة فقال :

(ولكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون) أى ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة على حسب أعمالهم من خيراً أو شراً فى الدنيا ، وليوفهم أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء منهم بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئاً حينئذ ، فلا يعاقب السيء إلا بعقوبة ذنبه ، ولا يحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبغض المحسن منهم ثواب إحسانه .
وبعد أن بين سبحانه أنه يعطى كل ذى حق حقه — بين الأحوال التى يلاقيها الكافرون فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى واذا ذكر لقومك حال الذين كفروا حين يعذبون فى النار، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : إن كل ما قدر لكم من اللذات والنعيم قد استوفيتموه فى الدنيا وتلتموه ولم يبق لكم منه شيء ، ولكن بقيت لكم الإهانة والخزى جزاء استكباركم وفسوقكم عن أمر ربكم وخروجكم من طاعته .
وفى هذا تحريض على التقلل من زخرف الدنيا وزينتها والأخذ بالتقشف فيها .
أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه رأى فى يد جابر بن عبد الله رضى الله عنه درهما فقال ما هذا الدرهم ؟ قال أريد أن أشتري به لأهلى لما قرءوا إليه ، فقال : أكلنا اشتبهتم شيئاً اشتريتموه ؟ أين تذهب عنكم هذه الآية : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأننا أعلم بخص العيش ، ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاً^(١) وصناباً وصلاتق

(١) الصلاء : الشواء بالمد والكسر ؛ والصناب : صباغ (سلطة) يتخذ من الخردل والزبيب ،
والصلاتق : الحملان المشوية

ولكنى أستبقى حسناتى ، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وأخرج أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان عن ثوبان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده من أهله فاطمة ، وأول من يدخل عليه منهم فاطمة رضى الله عنها ، فقدم من غزاة فأتاها فإذا عَمِشَ (بكسر فسكون ، وهو ثوب من شعر غليظ) على بابها ، ورأى على الحسن والحسين قُلْبَيْنِ (مثنى قلب بضم فسكون السوار) من فضة فرجع ولم يدخل عليها ، فلما رأت ذلك ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت الست وزرعت القلبين من الصبئين فقطعتهما فبكيا ، فقسمت ذلك بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يكيان ، فأخذ ذلك رسول الله منهما ، وقال يا ثوبان اذهب بهذا إلى بنى فلان (أهل بيت بالمدينة) واشتر فاطمة قلادة من عَصَب (بفتح فسكون خرز أبيض) وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتى : ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا » .

وقد كان السلف الصالح يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل ، لا أن التمتع بزخارف الدنيا مما يمتنع ، بدليل قوله تعالى « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالتَّطَيُّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

نعم إن الاحتراز عن التمتع أولى ، لأن النفس إذا اعتادت ذلك وألفته صعب عليها تركه والاكتفاء بما دونه ، والله درّ البوصيرى إذ يقول :

والنفس كالطفل إن تهله شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينظم

والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : أن على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبا كان أو قفارا (الطعام بلا أدم) ولا يتكلف الطيب ويتخذة عادة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عديم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها

ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمده أصلاً ، ولا يجعله ديدناً له .

قصص هود عليه السلام مع قومه عاد

وَأذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَسْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُونَ ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ كَعَلْمُهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

شرح المفردات

أخاعاد : هو هود عليه السلام ، والأحقاف : واحدها حقف (بالكسر والسكون) وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمي به وإد بين عمان ومهزرة كانت تسكنه عاد ، وكانوا أهل عمل ، سياراة في الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وهم من قبيلة إرم ، والنذر : واحد من نذير أى منذر ، من بين يديه : أى من قبله ، ومن خلفه : أى من بعده ، لتأفكنا : أى لتصرفنا ، عن آهتنا : أى عن عبادتها ، بما تعدنا : أى من معاملة العذاب على الشرك ، إنما العلم عند الله : أى العلم بوقت نزوله عند الله ، والعارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء قال الأعشى :

يا من رأى عارضا قد بث أرمته كأنما البرق فى حافاته الشعل

مستقبل أوديتهم : أى متجها إليها ، تدمر : أى تهلك ، حاق : أى نزل ، صرفنا : أى بيننا ونوعنا ، الآيات : الحجج والبرهان ، فلولا : أى فهلا ، نصرم : أى منهم ، قربانا : أى مقربا إليها إلى الله ، ضلوا عنهم : أى غابوا عنهم ، إفكهم : أى أتر إفكهم وصرفهم عن الحق ، وما كانوا يفترون : أى وأتر افتراءهم وكذبهم .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة ولم يلتفتوا إليها ولم تجدهم فتىلا ولا قطميرا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها — أورد هذا بذكر قصص عاد وضرب لهم المثل ليعتبروا فيتركوا الاعتقار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله ، فقد كانوا أكثر منهم أموالا وأقوى منهم جندا ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم ولم يغن عنهم ما لهم من الله شيئا .

الإيضاح

(واذ كر أخاعاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أي واذا كر أيها الرسول لقومك المكذبين ماجتتهم به من الحق - هوذا أخاعاد فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئا في عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة ، وأفردوا له الألوهة ، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحا : إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول «يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْتِي عَنْ مَوْتِي شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أْتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» .

وحين نصحهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أي قال قومه له : أجبنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ماتدعوننا إليه وإلى اتباعك فيما تقول ؟ هلم فهات ماتعدنا به من العذاب على عبادة مانعبد من الآلهة إن كنت صادقا في قولك وعديتك .

والخلاصة - أتزلنا بضروب من الكذب عن آلهتنا وعبادتها ؟ فأتنا بما تعدنا من معاجلة العذاب على الشرك إن كنت صادقا في وعيدك ، وقد استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادا منهم لوقوعه كما قال تعالى . «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا» .

فرد هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أي قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندى فلا أستطيع تعجيله ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال :

(وأبلغكم ما أرسلت به إليكم) من ربكم من الإنذار والإعذار ، لأن آتى بالعذاب ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربي .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال :

(ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى وإنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم ، ولم تهتدوا بما جئتمكم به ، بل اقترحتم على ما ليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجيء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأقتهم فقال :

(فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحابة يعرض فى أفق السماء متجها إلى أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، ظنا منهم أن غيثا قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياما ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له المعتب ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيرا . ولما سمع هود مقالهم وشامه مليا قال :

(بل هو ما استعجلتم به) من العذاب إذ قلتم « فَأَتِنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ثم فسر هذا العارض وبين حقيقته فقال :

(ريح فيها عذب أليم) أى بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويحملككم كأس الدابر .

ثم وصف هذه الريح فقال :

(تدمر كل شيء بأمر ربها) أى تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها بأذن ربها .

ونحو الآية قوله تعالى : « مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ » أى كالشئ البالى الخلق .

ثم ذكر مآل أمرهم بعدها فقال :

(فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) أى فجاءتهم الريح فدمرتهم فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، إذ قد اجتاحت الأموال وأذهبت الأنفس وجعلتها أثرا بعد عين .

روى عن ابن عباس : أن أول ما عرفوا أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فقلعتها الريح وصرعتهم : وأحال الله عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام ، ثم كشفت الريح عنهم الرمال فأحتملتهم فطرحتهم فى البحر .

أخرج مسلم والترمذى والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إنى أسألك خيبرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، فإذا أخيلت السماء تغير لونه صلى الله عليه وسلم وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه ، فسألته ؛ فقال عليه السلام لا أدرى لعلمه كما قال قوم عاد (هذا عارض ممطرها) » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله مستجما ضاحكا حتى أرى منه لهواته ^(١) وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيما وريحا عرف ذلك فى وجهه ، قلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا القيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيتته عرف فى وجهك الكراهية ، قال : يا عائشة وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا » .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالذَّبُورِ ^(٢) » .

(١) واحدها لهاة : وهى اللعنة المشرفة على الخلق فى أقصى سقف القم .

(٢) الصبا : ریح الشمال ، والذبور : ریح الجنوب .

وقد قال شاعرهم يحكى هذا القمص فيما رواه ابن الكلبي :

فدعا هود عليهم دعوةً أضحوها هُودا
عصفت ريح عليهم تركت عاداً خمودا
سُخّرت سبع ليلال لم تدع في الأرض عودا

(كذلك نجزي القوم المجرمين) أى كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب في الدنيا ، فأهلكناهم بعذابنا ، كذلك نجزي كل مجرم كافر بالله متداد في غيئه .
ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد الشديد .

ثم أخبر سبحانه عن قوة عاد بقوله :

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى ولقد مكنا عادا الذين أهلكتناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا ، وأعطيناها منها ما لم نعظكم مثله ولا قريبا منه من الأموال الكثيرة وبسطة الأجسام وقوة الأبدان — وهم على ذلك ما نَجَّوْا من عقاب الله ، فتدبروا أمركم وفكروا فيما تعملون قبل أن يحل بكم العذاب ، ولا تجدون منه مهربا .

ونحو الآية قوله : « كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ » .

(وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) أى إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناها سمعا فما استعملوه في سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناها أبصارا ليروا ما نصبتنا من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناها قلوبا تفقه حكمة الله في خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم في آخرتهم وقرابهم من جوار ربهم ، بل صرفوها في طلب الدنيا ولذاتها ، لاجرم لم ينفعهم ما أعطيناها من السمع والأبصار والأفئدة ، إذ لم يستعملوها فيما خلقت له من شكر من أنعم بها ودوام عبادته .

ثم بين العلة في عدم إغناء ذلك عنهم فقال :
(إذ كانوا يجحدون بآيات الله) أى لأنهم كانوا يكذبون رسل الله وينكرون معجزاتهم .

(وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى ونزل بهم ما سخروا به فاستعجلوه من العذاب .

وفى هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه ، فإن عادوا لما اغتروا بدنياهم ، وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، ولم تكن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئا — فأهل مكة معجزهم وضعفهم أولى .

ولما أخبر بهلاكهم على ما لهم من المسكنة العظيمة ، ليعظم بهم من سمع أمرهم ، أتبعه بذكر من كان مشاركا لهم فى التكذيب ، فأدركه سوء العذاب كما أدركهم فقال :
(واقد أهلكتنا ما حولكم من القرى) أى ولقد أهلكتنا يا أهل مكة ما حول قريتكم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وقد كانوا بالأحقاف بحضرموت ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وسيا باليمن ، ومدين ، وكانت فى طريقهم فى رحلاتهم صيفا وشتاء ، بعد أن أنذرتهم بالمثلات ، فلم يفت ذلك عنهم شيئا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر .

(وصرّفنا الآيات عليهم يرجعون) أى وبيننا لهم دلائل قدرتنا ، وبديع حججنا ليرجعوا عن غيرهم الذى استمسكوا به لحض التقليد ، أو لشبهة عرضت لهم ، فحلّ بهم سوء العذاب ولم يجدوا لهم نصيرا ولا دافعا لعذاب الله ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ، بل ضلوا عنهم) أى فهلا نصرهم أو ثانتهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتها قربانا يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا ، حين جاءهم بأسنا فأتقدهم من عذابنا إن كانوا يشفعون عنده .

وفي هذا تقرير لأهل مكة وتأييب لهم على أنه لو كانت آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تغني عنهم شيئاً ، أو تنفعهم عنده — لأغنت عن كان قبلهم من الأمم الذين أهلكوا بعبادتهم إياها ، فدفعت عنهم العذاب إذ نزل بهم ، أو لشفعت لهم عند ربهم ، لكنها أضرتهم ولم تنفعهم ، وغابت عنهم أحوج ما كانوا إليها ، فإحرام أن يقتنوا لما هم فيه من خطئ الرأي وسوء التقدير للأمور .

(وذلك إفاكمهم وما كانوا يفترون) أي وامتناع نصره آلهتهم لهم وضلالهم عنهم — أثر من آثار إفاكمهم الذي هو اتخاذهم إياهم آلهة ، ونمرة افتراهم على الله الكذب .

استماع الجن للقرآن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) .

شرح المفردات

صرفنا : أي وجهنا ، والنفر : ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، سمو بذلك : لأنهم ينفرون إذا حزبهم أمر لكفايته ، أنصتوا : أي اسكتوا ، قضى : أي فرغ

من تلاوته ، وتوا : أى رجعوا ، منذرين : أى مخوفين لهم عواقب الضلال . روى أن هؤلاء الجن كانوا من جن نصيبين من ديار بكر قريبة من الشام ، أو من نينوى بالموصل ، وكان الاجتماع بوادى نخلة على نحو ليلة من مكة ، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يندب الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نقرأ منهم فاستمعوا منه ، حتى إذا انقضى من تلاوته رجعوا إلى قومهم منذريهم عقاب الله إذا هم استمعوا على الضلال . أجازه الله من العذاب : أفضه منه ، وداعى الله : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليس بمعجز في الأرض : أى لا يتنجى منه مهرب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر — أعقب هذا بيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول عليه السلام كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن .

واعلم أن عالم الملائكة وعالم الجن لا يقوم عليهما دليل من العقل ؛ فهو بمنزل عن ذلك ، وإنما دليلهما السمع وإخبار الأنبياء بذلك فقط ، فعلىنا أن نؤمن بما جاء به فحسب ولا نزيد على ذلك شيئا ، ولا نتوسع فى بحثه وتأويله وتفصيله ، فإن ذلك من عالم الغيب الذى لم نؤت من علمه كثيرا ولا قليلا ، فعلىنا أن نؤمن بأن اتصالا قد تم بين النبى صلى الله عليه وسلم وعالم الملائكة ، وبه تلقى الوحى على أيديهم ، وأنه اتصل بعالم الجن ، فعلمهم وبشرهم وأنذرهم ، لكننا لا ندرى كيف كان الاتصال ولا كيف تلقوا عنه القرآن ، ولعل تقدم العلوم فى مستأنف الأيام يلقى علينا ضوءا من هذه المعرفة ، أو لعل قراءة علم الروح والتوسع فى دراسته ينير لنا بعض السر

في ذلك ، ففي هذه الدراسة معرفة شيء من أحوالنا في الحياة الأخرى بعد هذه الحياة .
وسياتى تفصيل لهذا القصص في سورة الجن .

الإيضاح

(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين) أى واذا ذكر أيها الرسول لقومك موبخاً لهم على كفرهم بما آمنتم به الجن ، لعلمهم يتنهبون لجهلهم ، ويرععون عن غيهم وقبح ما هم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلّموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ، ولا من جنس رسوله — فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ، ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه .

وذكر الوقت ذكرنا فيه من الأحداث التى يراد إخبار السامع بها ، لما لها من خطر جليل وشأن عظيم ، فيراد علمه بها ليكون لها فى نفسه الأثر الذى يقصد منها من ترغيب أو ترهيب ، ومسرة أو حزن إلى نحو أولئك من أغراض الكلام ومقاصده .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ، قال آذنته بهم الشجرة .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منكم أحد ليلة الجن ، قال ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة فقلنا اغتيل . استظير . ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ،

فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يجمىء من قبل حراء فأخبرناه فقال : إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثامهم وآثار نيرانهم . وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية . ثم فصل ما قالوه لهم في إنذارهم .

(قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) أى قالوا لهم يا قومنا من الجن : إنا سمعنا كتابا أنزله الله من بعد توراة موسى ، يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق ، وإلى مافيه لله رضا ، وإلى الطريق الذي لاعوج فيه . وخصوصا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين . وقال عطاء لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح .

(يا قومنا أجببوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرك من عذاب أليم) أى يا قومنا أجببوا رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — يغفر لكم بعض ذنوبكم ويسترها لكم ولا يفضحك بها في الآخرة بعقوبته إياكم عليها ، وينقذكم من عذاب مومج ، إذا أتمتتم من ذنوبكم وأنتم إلى ربكم ، وأخلصتم له العبادة . وفي الآية إيماء إلى أن حكم الجن حكم الإنس في الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهي .

ثم حذروا قومهم وتوعدوهم وأوجبوا إجابتهم داعي الله بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب فقالوا :

(ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء) أى ومن لا يجب رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى ما دعا إليه من التوحيد

والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسيقه هربا إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعية ، ولا يجده نصراء ينصرونه ويدفعون عنه عذابه .

ثم بين أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية في الضلال ، والبعد عن الصراط السوي فقال :
(أولئك في ضلال بعيد) أي وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون في ضلال
بين وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضح وأعلامه منصوبة ، والوصول
إليه ميسور ، فمن جائفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذي هو له أهل .

أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعنى بخلقهن
بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير (٣٣) ويوم
يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا بلى وَرَبَّنَا ،
قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٤) فاصبر كما صبر أولوا
العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون
لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون (٣٥) .

شرح المفردات

لم يعنى : أى لم يعجزه ، قال الكسائى : يقال أعيت من التعب ، وعيت من
انقطاع الحيلة والعجز ، قال عبيد بن الأبرص :

عَيُوا بأمرهم كما عَيَّت بيضتها الحمامة

أولو العزم : أى ذوو العزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوحٌ والخليل المجدُّ وموسى وعيسى والحبيبُ محمدُ

بلاغ : أى كفاية فى الموعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم ، وأبطل قول عبدة الأصنام ، ثم ثنى بإثبات النبوة وذكر شبهاتهم في الطعن فيها وأجاب عنها — أردف ذلك بإثبات البعث وأقام الدلائل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيى الموتى ، ثم أعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، وبعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لاحتالة وإن تأخر ، وحين نزوله بهم سيستقصررون مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا ، ثم ختم السورة بأن في هذه العظات كفاية أيما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ، ولم ينقذ لأمره ونهيه :

الإيضاح

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى؟) أى أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، وبعثه أيام من قبورهم بعد بلام ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شيء ، ولم يعى في إنشائهن — بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلام في قبورهم أحياء كهيتهم قبل وفاتهم ؟
ونحو الآية قوله عز وجل : « تَلْخُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

والخلاصة — إن من قال للسموات والأرض كونى فكانت بلا ممانعة ولا مخافة ، طائفة خائفة وجللة — أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ .

ثم أجاب عن ذلك مقررًا للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال:
(بلى إنه على كل شيء قدير) أى بلى إن الذى خلق ذلك — ذو قدرة على
كل شيء أراد خلقه ، ولا يعجزه شيء أراد فعله .

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال ؛ لوضوح الجواب إذ لا يختلف فيه أحد ،
ولا يعارض فيه ذولب .

ولما أثبت البعث بما أقام من الأدلة ذكر ما يحدث حينئذ من الأحوال فقال:
(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا) أى ويوم
يعرض هؤلاء المكذبون بالبعث وبثواب الله لعباده على أعمالهم الصالحة ، وعقابه
إياهم على أعمالهم السيئة — على نار جهنم يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ :
أليس هذا العذاب الذى تعدّون به اليوم ، وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا — بالحق
الذى لاشك فيه ؟ قالوا من فورهم : بلى وربنا إنه لحق .

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى قال أمر لهم على طريق الإهانة
والتوبيخ : ذوقوا عذاب النار الآن جزاء جحودكم به فى الدنيا وإياكم الاعتراف به
إذا دُعيتم للتصديق به .

ولما قرر التوحيد والنبوة والبعث وأجاب عن شبهاتهم — أردف ذلك بما يجرى
مجرى العظة والنصيحة لنبية ، لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوغرون صدره فقال :

(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أى فاصبر أيها الرسول على ما أصابك
فى الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذراً ، كما صبر أولوا العزم
من الرسل على القيام بأمر الله والانتهاى إلى طاعته .

والمخالصة — اصبر على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد كما صبر إخوانك
الرسل من قبلك .

وعن عائشة قالت : ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ثم طوى ، ثم ظلّ
صائماً ثم طوى ثم ظلّ صائماً قال يا عائشة : « إن الدنيا لا تنبغى لحمد ولا لآل محمد ،

يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم عن الرهيل إلا بالصبر على مكروها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم فقال : « اضْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله . أخرجه ابن أبي حاتم والديلمى .

ولما أمره بالصبر، وهو أعلى الفضائل، نهاه عن العجلة وهي أخس الرذائل فقال : (ولا تستعجل لهم) أى لاتعجل بمسألة ربك العذاب لهم ، فإنه نازل

هم لاجمالة .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا » وقوله : « قَهْلُ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ يُرَوَّدُونَ » .

ثم أخبر بأن العذاب إذا نزل بالكافرين استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال :

(كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أى كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم - لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار - لأن شدة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا فى الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار .

ونحو الآية قوله : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ » وقوله : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

(بلاغ) أى هذا القرآن بلاغ لهم وكفاية إن فكروا واعتبروا ، ودليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ » وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ » .

ثم أوعد وأنذر فقال :

(فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) أى وما يهلك بالعباد إذا نزل إلا الخارجون عن طاعة الله المخالفون لأمره ونهيه ؛ إذ لا يعذب إلا من يستحق العذاب .

قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك ، وهذه الآية أقوى آية في الرجاء . ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، وهذا تطميع في سعة فضل الله سبحانه وتعالى .

أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو : « اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمية من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته ولا همّاً إلا فرّجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين » .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

- (١) إقامة الأدلة على التوحيد والرد على عبدة الأصنام والأوثان .
- (٢) المعارضات التي ابتدعها المشركون للنبوة والإجابة عنها وبيان فسادها .
- (٣) ذكر حال أهل الاستقامة الذين وحدوا الله وصدقوا أنبياءه وبيان أن جزاءهم الجنة .
- (٤) ذكر وصايا للمؤمنين من إكرام الوالدين وعمل ما يرضى الله .
- (٥) بيان حال من انهمكوا في الدنيا ولذاتها .
- (٦) قصص عاد وفيه بيان أن صرف النعم في غير وجهها يورث الهلاك .
- (٧) استماع الجن للرسول صلى الله عليه وسلم وتبليغهم قومهم ماسمعه .
- (٨) عظة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته .
- (٩) بيان أن القرآن فيه البلاغ والسكفاية في الإنذار .
- (١٠) من عدل الله ورحمته ألا يعذب إلا من خرج من طاعته ولم يعمل بأمره ونهيه .